ذلك الفارس الذي لم يترجل

« الدكتور باسل الكبيسي »

بقلم : الدكتور اسعد عبد الرحمن

تنشر مجلة « شؤون فلسطينية » في عدد نيسان هذه المقالة ، التي كتبها رفيق الشهيد باسل كبيسي وصديقه الحميم الدكتور أسعد عبد الرحمن . وتنقلها « الهدف » بنصها الحرفي ، لما فيها من تعريف دقيق بحياة الرفيق الشهيد وتطورات تلك الحياة النضالية الحافلة ، التي توجتها الشهادة في السادس من نيسان عام ١٩٧٣ .

« الهدف »

الاذاعة ووكالات الانباء في ٦-٤-١٩٧٣ : « اطلق مجهولان اليوم النار في أحد شوارع باريس على استاذ عراقي هو الدكتور باسل الكبيسي فاردياه قتيلا ... ويعتقد ان للحادث دوافع سياسية » .

وعرفت كيف يكون عليه طعم الموت في الربيع . كيف يطحن الم الوعي بموت الاعزاء خلايا الدماغ وهي تدرك ، مع نعيق بومة مُعشعشة في وكالة انباء او مذياع ، أن من دوما شعت عيناه بحب لا متناه للحياة قد قضى بعد ان مزقت جسده تسع رصاصات أطلقت ... في الظلام ... ومن الخلف !

وينتصب السؤال ، بعد مضي عام كامل ، عملاقا مقهقهـا : أيهما اكثر مرارة ... الموت ... أم طعمه في حلق الصديق ؟

والى ان نلتقي رصاصة الرحمة ، او تلتقينا ، سنبقى نتساءل :

لماذا الحديث ... بالذات ... عن طعم الموت في الربيع ؟

اله نكهة مختلفة عن مذاقه عندما جاء متسربلا في ثياب لص من السل فنهش صدر طفل نازح ؟

أم لانه يثير التقزز اكثر من وفادته على شكل صاروخ أسقطته طائرة اسرائيلية (أم عربية ، لا فرق) فهبط ... فجأة ... على رأس امرأة وهي تسير في مخيم للنازحين ؟

أم تراه اقل عذوبة من الموت الذي أتى ... متبرجا ... يعتمر عمامة خضراء ... او يرتدي بلوزة سوداء... أو يتوشح راية حمراء ؟

ولماذا ؟ ولماذا ؟ لماذا ؟

لماذا طالما ان الموت واحد وان تعددت الاسباب ...

ولماذا طالما ان قيمة الشهيد ، في كل زمان ومكان ، واحدة ...

... لماذا الحديث ... بالذات .. عن باسل ؟

لسببين :

... نقطة ضعف تتعلق بي : –

كونه ، حيا وشهيدا ، اعز الاصدقاء .

... ونقطة قوة تتعلق به : –

– كونه واحدا من اولئك الفرسان ... النادرين ... الذين امتطوا الجواد...

وثبتوا عليه ... ولم يترجلوا .

كان على جواد العمل الوطني الذي امتطى باسل صهوته ان يقفز فوق حواجز زادت اضافية

من الاعباء التي تثقل عادة اكتاف العاملين في الحقل الوطني . ولعل احد اكثر هذه الحواجز ارتفاعا وصعوبة ذلك الممتد جذوره . بعيدا . في اعماق اصول المنشأ الاجتماعي – الاقتصادي المنحدر منه باسل :

فمحمد سعيد . عميد آل الكبيسي . واولاده السبعة (باستثناء جاسمهم رؤوف) شكلوا القاعدة الصلبة التي استند اليها البناء الاجتماعي-الاقتصادي لقرية « كبيسة » (وتقع في الشمال الغربي من مدينة بغداد في لواء الرمادي) . في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر . وهم بانتمائهم لقبيلة « بو حيدر » (علاوة على كونهم اخوال قبيلة « البو دريع ») ضمنوا لانفسهم مركز الصدارة الاجتماعية في القريه . ومن الصدارة الاجتماعية الى الصدارة الاقتصادية ، او بالعكس ، تربع جد باسل وأعمامه . وهم الممسكون الرئيسيون بخيوط النشاط التجاري . على قمة الهرم الاقتصادي – الاجتماعي في المنطقة .

ومن ناحية ثانية ، كان عميد آل الكبيسي وابناؤه ، حافظين امناء لتراث القبلية . ويبدو ان دورة النشاط الاقتصادي التجاري ، التي كانت « كبيسة » احدى حلقاتها البارزة ، نجحت في عزل المثالب القبلية من عدم استقرار وعوز مادي وغزو ، تماما مثلما استطاعت تدعيم مناقبها من فروسية وسجاعة ، استجارة واستخارة بالاضافة الى ديموقراطية « الدواوين » وكرمها . *

* وفي هذا المجال لا زال فتح المطعم او المحر او المدى على رأس قائمة « المحرمات » في تقاليد قرية « كبيسة » لما في ذلك من حرمان لاهل القرية من استضافة الوافدين – الزائرين لها .

وفي هذا كله ورود الى أحد ينابيع المؤثرات التي ، طوعا او كرها ، سلبا او ايجابا ، شعوريا او لا شعوريا ، يشرب منها باسل .

وهذا هو الينبوع البعيد – القريب اذ لم تتمزق حتى الان ، الوشائج التي تربط بين السلف في قرية « كبيسة » والخلف حيثما كان في بلاد الرافدين .

اما الينبوع الرئيسي الثاني الذي نهل باسل من تأثيراته فهو والده رؤوف الكبيسي الذي كان اول الجسور المتينة الثابتة التي وصلت ما بين فرع العائلة القبلي – التجاري وفرعها الحضري-الوظائفي . ففي بغداد ولد رؤوف في العام ١٨٨٦ وانضم ، متأثرا بروح احداث ١٩٠٨ ، الى « جماعة العربية الفتاة » ، ثم عمل ، بعد ان تخرج من الكلية الحربية في اسطنبول ، في العام ١٩١١ ، ضابطا في « جندرمة بغداد » ** وبعدما حارب القوات البريطانية الغازية في العام ١٩١٧ ، التجأ الى سورية والتحق بالحكومة العربية الى جانب الملك فيصل واصبح قائدا لدرك حلب . وعندما عاد مع الملك الوافد الى العراق في العام ١٩٢١ ، ارتقى السلم الاداري حتى عين محافظا لمدينة « البصرة » . واثر هجومه على بريطانية واتهامها علنا *** بمعاملة العراق « كبقرة حلوب » ، اعيد الى بغداد حيث عين ، بعد فترة ، مديرا عاما لسجونها . وكان رؤوف ، من ناحية الانتماء السياسي ، احد ابرز انصار ياسين الهاشمي – « بسمارك العرب » . والقطب الرافض لاية معاهدة من شانها ربط العراق بالدول الاجنبية .

ضمن اطار هذه الخلفية من التأثيرات ، ولد باسل رؤوف الكبيسي في شباط (فبراير)

** تزوج رؤوف من نعمة صبري ، وهي من عائلة بغدادية عريقة ، في العام ١٩١٣ .

*** كان ذلك في حفل افتتاح ميناء البصرة (١٩٢٩) بحضور الملك فيصل الاول والكولونيل وارد ، مدير الموانئ البريطاني .

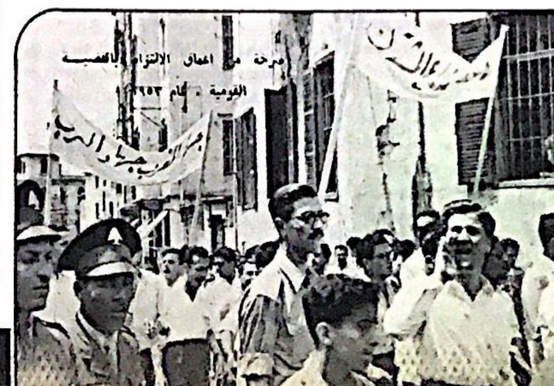

مرحلة من اعماق الالتزام بالقضية القومية . عام ١٩٥٣

١٩٣٣ فجاء ترتيبه الاصغر بعد ثلاث سفليات وشقيقين . وكان اول ما تفتح عليه وعي باسل ، بحبوحة عيش واضحة والتزام وطني اوضح ووالد سرقى أمل الى انصرافه منه الى الليونة والده تعوض من الحنان ما قد ينقص ... وتفيض . ومن يعرف الاحياء من افراد عائلة رؤوف الكبيسي ، يلاحظ المزيج الخاص من « التقاليد » المحدثة ، الارستقراطية – المتواضعة ، العريقة – الشعبية التي تؤطر سلوك العائلة ومسلكيتها .

وفي هذا كله ورود لينبوع ثان من المؤثرات التي كان باسل اقرب اليها واشد التصاقا بها واكثر عرضة لتأثيرها .

أما الينبوع الرئيسي الثالث الذي شرب منه باسل ، حتى الثمالة ، وارتوى ، بل وسبح فيه حتى نعبت الحياة ذاتها من حيويته فتخلت عنه ، فهو ينبوع المناخ السياسي العام الذي عايشه ، والهواء السياسي الخاص الذي تنفسه :

فمن جهة ، بدأ باسل رحلة الاربعين عاما التي عاشها من نقطة تقع تقريبا عند منتصف المسافة الزمنية بين حدثين بارزين في تاريخ العراق المعاصر – انضمام المملكة العراقية الى « عصبة الامم » في ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٢ ، ووفاة مؤسسها الملك فيصل الاول في ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣ واعتلاء الملك غازي سدة العرش . واذا كان الحدث الاول قد ثبت صورة العراق دوليا ، فان الحدث الثاني قطع خيوط الوفاق بين الريف والمدينة وعكر صفاء « الميزان المتوازن » الذي حكم علاقات اقطاب السياسيين التقليديين طوال فترة طويلة .

ومن جهة ثانية ، ترافق بدء باسل لدراسته في المرحلة الابتدائية (في « المدرسة المأمونية » الحكومية في العام ١٩٣٩ – ١٩٤٠ ، مع مقتل الملك غازي في نيسان – ابريل ١٩٣٩ ومع اندلاع نار الحرب الكونية الثانية في ايلول – سبتمبر من العام ذاته . كما بلغت موجة المد القومي العربي ، آنذاك احدى اعلى قممها . وكان كل هذا ضمن اطار هيمنة الجيش على مجريات السياسة في البلاد بعد ان بدأ مسلسل الانقلابات العسكرية منذ تشرين الاول – اكتوبر ١٩٣٦ وما اعقبه من وفاة ياسين الهاشمي واغتيال جعفر العسكري وتمحور الصراع حول اتجاهين متصادمين التيار المعادي للاستعماريين البريطاني والافرنسي من جهة والتيار الداعي مع الانجليز من جهة ثانية .

في « المدرسة المأمونية » تلك ، ومنذ سنته الابتدائية الاولى ، ارتدى باسل ، ضمن « نظام الفتوة » ، الثوب الخاكي واستمد ، قبل ان يفقه تلك الاحرف ، اناشيد : « نحن الشباب » . و « موطني يا موطني » . و « هيا فتوة للجهاد » . وفي احدى الصور الفريدة ، يظهر باسل وقد اشترك في اول مظاهرة له ، وهو في الصف الثاني الابتدائي ، اثناء حركة الكيلاني في العام ١٩٤١ .

وفي سنوات دراسة باسل الابتدائية ، كانت الخارطة السياسية في البلاد ترسم من جديد تحت وطأة المخضات التي عاشتها الحركة الوطنية . ففي تلك الفترة صعدت الطبقة المتوسطة الى مسرح الاحداث – متأخرة – بعد ان افاقت من تنويم مقصود سببته ابرة تخدير قديمة كانت سلطة الانتداب البريطاني قد غرزتها ، على شكل اجراءات اقتصادية ، في جسد الشعب العراقي . وهكذا ظهرت « القوة الجديدة » بشقيها القومي والشيوعي واجبرت الامير عبد الاله ، « الوصي على العرش » ، على الاعتراف بها والانحناء امام عاصفتها في العام ١٩٤٥ .

في ذلك العام بالذات ، دوخت باسل دوامة الوضع الطبقي الذي وجد نفسه فيه فخاض احدى معاركه المبكرة مع القوى السلبية الفاعلة في ذلك الوضع ... وكانت ساح القتال على ارض مصر .

اذ بعد ان انهى باسل مرحلة الدراسة الابتدائية ، ابعدته بحبوحة العيش ، في العام ١٩٤٥/١٩٤٦ الى « كلية فكتوريا » في الاسكندرية لمتابعة دراسته .

وفي « الغربة » ، في السن المبكرة تلك ، بدأت صراعات باسل مع باسل ... وكان لا بد من ايجاد اجوبة لاسئلة كثيرة حائرة ومحيرة :

أيسمح لرياح موقعه الطبقي ان تقود سفينة تحصيله العلمي الى شاطئ المؤسسات الاكاديمية الخاصة بابناء النخبة وعلية القوم ؟ ايسلم صفحة دماغه البيضاء لتلك المؤسسات كي تمسح عنها ما حفرته التأثيرات الوطنية في عائلته وتنقش عليها وسما من الثقافة الاستعمارية الغربية ملازمة الى الابد ويغدو معه « اجنبيا » وسط افراد عائلته وعشيرته وفي وطنه ؟ ثم والمسالة – كما شرحها باسل نفسه في جلسة حميمة – مسالة شعور وليست مسالة قرار فحسب . اذ كيف يستطيع ان يتجاهل حالة الاحتقان التي بدأ يعاني منها ولا يهرب من خطر الاختناق الداهم الذي كان يراه مندفعا – وبسرعة بالغة – باتجاهه ؟ ولماذا يبقى اسير السرب « النخبوي » والقفص « الفكتوري » اللذين اعتقل – فيهما على يدي « شرطة » الترسبات الناجمة عن الموقع الطبقي الذي لم يختره هو ؟

وكان قرار باسل – وهو في سن لم تكن تؤهله لاتخاذ قرارات – حاسما بوضوحه : لا للعودة الى « كلية فكتوريا » ونعم للمدارس الحكومية ...

وهكذا قطع باسل بعض خيوط شبكة العنكبوت الطبقي « المنسوجة حوله ... ومضى ، ممتطيا صهوة « مهر » عمله الوطني ، سائرا في الاتجاه الصحيح .

باشر باسل دراسته في « كلية بغداد » في مناخ انفراج اشاعته حكومة توفيق السويدي (١٩٤٦) تحت ضغط « القوة الجديدة الصاعدة » . وقد كان قرار الحكومة في السماح بتشكيل الاحزاب بمثابة نزع سدادة « قمقم » العمل السياسي الشعبي واطلاق سراح « مارد » الطبقات الشعبية بصدارة الطبقة المتوسطة المسيسة . اما قطاطة حكومة ارشد العمري (التي جاءت في حزيران – يونيو ١٩٤٦) فلم تفلح في كسر « زنبرك » العمل السياسي الشعبي فحسب ، بل تورطت في ضغط ذلك « الزنبرك » – مضيفة الى زخمه زخما جديدا – ساعده ، لاحقا ، في الارتداد على السلطة الحاكمة بقوة اشد .

ومنذ نهاية العام ١٩٤٦ ، غدا باسل يتيما . فقد وافت المنية رؤوف الكبيسي في الثامن من كانون الاول (ديسمبر) ولم يكد يقرع باب الـ ١٣ عاما . ومع ذلك لم تخفف الوالد اثر الارامل وراءه طفلا . فباسل اليافع . ابن الاربعة عشر ربيعا ، كان قد تخطى مرحلة « الطفل الجاد » (الجاد لدرجة انه لا يذكر – كما ان كل من عرفوه آنذاك لا يذكرون – مروره بفترة شقاوة واصحبه العالم) الى مرحلة الشباب المرزين الذي لفت رصانته المبكرة الانظار اليه واثارت الفضول من حوله وكانت محط تندره هو وتنكه مريديه الاقربين في وقت لاحق . كما اصبح واضحا ان شخصية باسل الاخذه بالتشكل النهائي كانت قد مالت بشكل حاسم ، بعد ان نجح في القفز من فوق مرحلة المراهقة ، نحو التدرب الشديد والحياء المرهف « الفارس العصري » من سجاعة وكرم وشهامة والتحلي ، اولا وقبل كل ميزة اخرى ، باخلاق واما عيوبه البارزة فكانت في حدية هذه الصفات عنده وفي عبوره ، احيانا ، ذلك الخط الرفيع الذي تتحول وراءه هذه المناقب ، من سدة الافراط فيها ، الى مثالب . هذا على الصعيد الخاص .

اما على الصعيد العام ، فقد كاد العراقيون ان ينسوا ، في الفترة ما بين ١٩٤٦ – ١٩٤٨ ، معنى عبارة « الاستقرار السياسي » . فمع غياب الهدوء عن قاموس الحياة اليومية ، اشتدت قوة حضور الاضرابات والمظاهرات وبخاصة في الكليات والمدارس . وكان طبيعيا ومتوقعا ان لا تفوت باسلا ، الطالب في « الثانوية المركزية » ذا الحماس المتفجر ، اي من هذه النشاطات . وفي « الوثبة » (الانتفاضة الشعبية ضد اتفاقية بورتسموث ، في كانون الثاني – يناير ١٩٤٨) اضطر باسل لان يبتعد ، مددا وجيزة ، عن صخب الشارع الى سكون المستشفى حيث كان الاطباء ينتزعون من جسد شقيقه (ياسين) رصاصة من رصاصات السلطة التي مزقت كبده وكادت ان تخطف ماء الحياة فيه .

الرفيق باسل داخل حرم الجامعة الامريكية ببيروت خلال معارك الطلاب ضد معاهدة الدفاع المشترك عام ١٩٥٣ .

في الذكرى الاولى لاستشهاد الرفيق باسل الكبيسي ، ننشر فيما يلي نص الرسالة التي كتبتها له ارملته الصامدة :

ها قد مضى عام على رحيلك – عام بكامله – لم اسمع خلاله اي خبر منك وقد عودتني ان تطمئنني عنك اسبوعيا . كثيرا ما اتساءل ترى كيف تمكنت من ان احيا بعدك طوال هذه المدة ! ولعل الجواب هو اني اعيش على ذكراك .

ما اكثر ما حدث خلال هذا العام اذ اندلعت الحرب مع اسرائيل – وهو خبر يهمك – وهجمت الجيوش العربية وحققت نصرا بعبور القناة . كانت ثقتك دوما كبيرة بالجيش والشعب... وتمنيت يومها لو أن الله امهلك لتشهد النصر ... ولكن ما لبثت الحرب ان توقفت ... وواسيت نفسي قائلة لعل الله اراد لك الخير فجنبك خيبة امل ثانية كالتي اصبت بها بعد حرب حزيران .

لقد كانت معنوياتك دوما عالية وكان رفاقك يستلهمون القوة المعنوية منك ... كنت صلبا امامهم ولكني كنت احس بقلبك يقطر دما من الالم . لكنك لم تعرف معنى اليأس وكنت دوما مؤمنا بان النصر سيكون حليفنا في النهاية ... ومن يدري فقد يأتي اليوم الذي اكتب لك فيه ثانية مبشرة اياك بالنصر فما دام هناك شعب وجيش مؤمن بحقنا في فلسطين ... وما دام لك رفاق لا زالوا يواصلون مسيرتهم على درب النضال ... وما دامت هناك عزيمة وتصميم على السير حتى النصر ... فسوف نحتفل بالنصر او قد يحتفل به اولادك بعد ان عبدت لهم طريق النضال بدمك كما فعل رفاقك الذين استشهدوا من قبلك والذين استشهدوا من بعدك .

كنت تسألني دوما عن اولادنا في رسائلك واود ان اخبرك بان ياسر ويعرب لم يعرفا بعد بمصيرك ... يسألان عنك دوما ويطلبان مني ان اكتب اليك . لم يطاوعني قلبي ان احرمهما من ذكراك ... لقد حرما منك في الحياة فليهنئا على الاقل في عالم احلام اليقظة . يطلب مني ياسر ان تكون عودتك يوم الجمعة كي يخرج لاستقبالك ... ويسألني يعرب متى يكون العيد فاجيبه بان العيد قد فات فيقول محتجا (لا اقصد هذا العيد وانما العيد الذي نذهب فيه الى بابا باسل) ... ولم اشأ ان اخبره باننا لن نشهد عيدا آخر ... بل ليس من حقنا كعرب ان نهنأ بالعيد ... واذكر تعليقك لي مرة بعد ان هنأت احد الاصدقاء بالعيد ، بألا عيد لنا الا يوم النصر ...

اما احمد فقد علم بحقيقة الامر وتلقى الخبر بصلابة وشجاعة تؤهله لان يكون ابنك – ابن الشهيد – وهو يفخر بك دوما ولكنه يفتقدك كثيرا ... وقبل ايام كنت احكي له ولاخويه عنك واستعملت صيغة الماضي دون قصد فطلب مني بكل رقة الا استعمل هذه الصيغة وانا اتكلم عنك ... وايدته في ذلك قائلة : ان الذي نحبه لا يموت فهو دوما حي في قلوبنا قريب منا .

وختاما اعاهدك يا باسل على ان اكون مخلصة للقضية التي استشهدت من اجلها وان اربي اولادنا على نفس المثل والقيم التي كان بودك ان تربيهم عليها . وساستلهم من ذكراك القوة والصبر . والى لقاء

ارملتك